مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الذاريات

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الذاريات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ابتدأت سورة الذاريات بالقسم من الله تعالى ببعض مخلوقاته العظيمة. بأن الذي وعدناكم به أيها الناس لواقع، وقوعاً مؤكداً حق اليقين، من البعث والحساب والجزاء بالثواب والعقاب بحسب ما كان منكم من الأعمال في الدنيا. وبدأ القسم بالرياح، فقال تعالى ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ يقسم الله تبارك وتعالى بالرياح، حين تَهُب، فتُحَرِّك التراب، وتُفَرِّقُهُ عن بعضه البعض ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ ذَرَت الرياحُ الترابَ، أي فرقته، من خلال تحريك بعضه عن بعض، لتسوقه من مكانه إلى مكان آخر. وقد أفادت ﴿ ذَرْوًا ﴾ التأكيد، باعتبارها مفعول مطلق. مصدر مؤكد، بأن الرياح ساقت ذرات التراب سوقاً كما أراد الله تعالى. وفي هذا لفت الانتباه لعظيم خلقه وتدبيره سبحانه وتعالى في تحريك الرياح. كما إن في ذلك إظهار لعظيم قدرة الله عَزَّ وجل، وعظيم تدبيره في ملكه، إذ يُسَلِّط الرياح على التراب الثابت والساكن، فإذا به يتحرك بحسب ما تنقله الرياح علواً وارتفاعاً، ويميناً وشمالاً، ومن مكان لآخر. بل من عظيم قدرته وتدبيره، أنه لا ينقل ويحرك جميع التراب، بل يأخذ بعضه ويترك بعضه، ففي هذا الأخذ للبعض دون البعض، آية على عظيم تدبيره. وفي نقله من مكان لآخر، تدبير عظيم آخر، وفي تسليط الرياح عليه بنقله آية تدبير أخرى عظيمة، وفي تفرقه عن بعضه البعض آية تدبير على عظمته عَزَّفي علاه. بما يبين ويُظهر أنه على كل شيء قدير، وبالتالي لا يعجزه جمع رفات العباد بعد موتهم، وإعادة بعثهم وحسابهم ومجازاتهم، كل بحسب ما كان منه.

ثم يُقْسِمُ تبارك وتعالى بمخلوق آخر، وهو السحاب وما يحمله من الماء، فقال تعالى وهو يُقْسِم بالسحاب ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ فيقسم بالسحاب الذي يحمل وقره من الماء، فدلالة ﴿ وِقْرًا ﴾ تفيد معنى: الحمل، أي: الشيء المحمول، كما تحمل بعض الدواب ما يُوضع على ظهرها. فهي تحمل الماء الثقيل والكثير من

الأمطار، الذي يروي بها سبحانه وتعالى الأرض، والإنسان والدواب، وتنتعش به حياة الناس، وتزدهر به الأرض ومع ذلك تمر وتسير تلك السُّحُبُ بعد الإمطار بنفس الكثافة، وكأنه لم ينقص من تلك الحاملات شيئاً ما كانت تحمله من الماء. فيقسم الله تعالى بهذا الخلق والتدبير العظيم. ليلفت به انتباه العباد إلى أن يتدبروا عظيم قدرته في تصريف مخلوقات العظيمة، بما ينفع الناس. فإن ذلك يُوجِبُ توحيده، وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، بما شرع من الدين الذي أنزله على رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يقسم سبحانه وتعالى بالسفن وهي تجري في البحار بقدرته العظيمة ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾ والسفن وهي تجري، ومع هذا الجريان فهي تجري جرياً سهلا. وقد أفادت دلالة ﴿ يُسْرًا ﴾ السهولة مع قوة الجري، فهما أمران متضادان، ولكن بقدرة الله تعالى وحُسن تدبيره، جعل هذا الجري فوق البحر أمراً سهلاً، لا صعوبة فيه. وفي هذا المزيد من لفت الانتباه إلى دقائق قدرته سبحانه وتعالى في تدبير شؤون خلقه، وتيسيره وتسهيله عليهم ما يحتاجون إليه. مما يستوجب شكر إنعامه وتفضله بطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل القسم من الله تعالى إلى ما خلق من الملائكة، وما هي عليه من الوظائف والأعمال. فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ يعني: الملائكة وهي تقوم بتقسيم الأمور وفق ما أمرها الله تعالى به من الأعمال التي أوكلها إليها. فهناك ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وهناك ملائكة مُوكلة بالدعاء، وملائكة مُوكلة بكتابة ما يكون من بني آدم. ومن ذلك إسرافيل صاحب النفخ في الصور، وعزرائيل لقبض الأرواح. مما ينبه الإنسان على عظيم صُنْعِه وقدرته عَزَّ في علاه.

ومن بديع ودقة البيان أن انتقل القسم من المحسوسات، من الذاريات، والسحاب، والسفن الجاريات في البحار إلى الملائكة التي لا يراها الإنسان. وهذا من بديع والإعجاز في التدرج بالعقل البشري من المشاهد المحسوس إلى ما غاب عنه، فلا يراه عياناً، ولكن يحس بأثره في قبض الأرواح، وفي جريان الرياح والسحاب وغير ذلك. وفي هذه الأقسام من الله تعالى بالعديد من مخلوقاته ما يفيد التشريف والتعظيم لها، ولِمَا خَلَق. كما أن في ذلك إظهار لعظيم تدبيره، وعظيم خلقه جَلَّ جلاله. لتحريك القلوب والعقول للتأمل والتدبر. وهو قسم خاص بالله تعالى، فله أن يقسم بما شاء، وليس ذلك للمخلوق أن يقسم إلا بالله تعالى، خالقه ورازقه، ومدبر أمره.

ثم ينتقل بهذا القسم العظيم إلى الْمُقْسَم عليه، فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ فإنما جميع ما وعدناكم به لكائن ومتحقق مثل ما أخبرناكم به. وقد ورد ما وعد به سبحانه وتعالى عاماً، ليستوعب ويستوفي جميع ما وعد الله تعالى به، من الثواب والعقاب، والبعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، فإنه ﴿ لَصَادِقٌ ﴾

أي: لكائن، حق. ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك الوعد بالتخصيص بعد التعميم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ فإن الحساب والجزاء لكائن كما وعد ربكم به. ليفيد القوة والدقة، مع تأكيد الإثبات بأسلوب التخصيص بعد التعميم، لإظهاره.

ثم يتكرر القسم من الله تعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ فَيُقْسِمُ الله تبارك وتعالى بالسماء المتصفة بالجمال مع الدقة ﴿ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ أي: ذات الْخَلْق الحسن الجميل، والبنيان المتقن المستوي، الذي لا يتخلله عيب، ولا خلل فيه، وأيضاً ذات الزينة، حيث حُبِكَت بالنجوم التي ترونها، والطرق المتعددة، التي لا ترونها. وقد جمعت ﴿ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ هذه المعاني والدلالات لغزارة معانيها. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ذات الطرائق. وتكسير كل شيء حُبُكُه، وهو جمع حِباك وحَبيكة. ويقال ذلك للرملة إذا مرت بها الريح الساكنة، والماء القائم، والدرع من الحديد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذات الْخَلْق الْحَسَن. وقال: حُسنها واستواؤها. وبمثله قال سعيد بن جبير. وقال عكرمة: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب. قال: ما أحسن ما حبكه. وقال الضحاك: ذات الزينة. ويقال أيضاً: حبكها مثل حبك الرمل، ومثل حبك الدرع، ومثل حبك الماء إذا ضربته الريح، فنسجته طرائق[١] فهذه الدلالات التي استوعبتها كلمة ﴿ ٱلْحُبُكِ ﴾ دليل على قوة ومعجزة بلاغة القرآن في اختيار الألفاظ التي تستوعب أوجه المعنى والدلالة المرادة من غير حاجة إلى تكرار مفردات ألفاظ الوصف بالتعداد والتكرار.

ثم ذكر تبارك وتعالى جواب القَسَم الثاني: فقال تعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ فقد أقسم الله تعالى بالسماء ذات الحبك أنكم أيها المكذبون ﴿ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ مختلفون ومتباينون ومتفاوتون في أقوالكم عن هذا الدين، وعن القرآن، وعن محمد صلى الله عليه وسلم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف، مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن، ومكذب به[٢] ومن دقائق البيان أن جُمِعَت أقوالهم في مُفْرَدٍ من القول ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ ﴾ ثم وُصِف هذا القول بالاختلاف والتشتت والتفرق ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ بما يفيد أنه على الرغم من أقوالكم المختلفة إلا أنها كانت بمثابة قول واحد في باطلها وبطلانها، وذلك باعتبار باطلها، فعلى اختلاف تنوعها فحكمها حكم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٤٨٦-٤٨٩)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٤٩)

القول الواحد، وهو أنها قول باطل. وهذه من دقائق البلاغة البيانية. مما يفيد ويدل على أن الباطل مهما تنوعت مفرداته ومقاصده فنتيجته وحكمه واحد.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما يترتب على اختلافهم على هذا الدين، فقال عَزَّ وجل ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي: يُصرف عن هذا الدين من صرف نفسه بالاختلاف عليه. فالأَفْك بفتح الهمزة وسكون الفاء هو الصرف. ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ ﴾ يُصرف عن هذا الدين، ويُبعَد عنه من صرف نفسه عن قبوله تكبراً واستعلاء وحسداً. وقد أوضح تبارك وتعالى علة وسبب هذا الانصراف، بأنه مُتعلق بذات المنصرف عنه ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يُصرف عنه من صرف نفسه عن الإيمان به. وقد أثبتت دلالة ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ من تحقق فيه الانصراف عن الإيمان والتصديق به. وقد ورد ﴿ أُفِكَ ﴾ بصيغة الفاعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ أُفِكَ ﴾ ليجمع جميع مسببات الانصراف عن الإيمان وتنوعها، فجمعت من صرف نفسه محاباة للأعيان والزعماء، وجمعت من كان سببه العناد والاستكبار، ومن سببه الحسد للرسول صلى الله عليه وسلم، والمغرور بما هو عليه، والطامع في مطامع البقاء فيما هو عليه، وكذلك من اقتدى بغيره، ومن أثر فيه أعوانه وأصحابه، وبغير ذلك من الأسباب والأحوال التي تصرف عن التصديق والإيمان.

ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ عَنْهُ ﴾ في قوله تعالى ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أنها تنطبق على القرآن وكذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك على عموم الدين. فقد استوعبت جميع مكونات الإيمان بدين الله تعالى. وهذا من بلاغة البيان وإعجازه. مما يفيد أن من صرف نفسه عن الحق راضياً بالباطل الذي هو عليه، فقد حرم نفسه بنفسه عن الحق، فلا يُوَفَّق إليه.

ولَمَّا أن انصرافهم كائن عن باطل قد تلبسوا به، فحرموا أنفسهم من الخير، يُوبخهم الله تعالى بما يستحقون من التوبيخ، فقال عَزَّ وجل ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ لَعَن اللهُ تعالى المكذبين، وأبعدهم وصرفهم. فقد أعطت دلالة ﴿ قُتِلَ ﴾ قوة المقت والغضب من الله تعالى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: قُتِل المرتابون. وقال الفراء: معنى ﴿ قُتِلَ ﴾ لُعِن ﴿ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ الكذابون، الذين يتخرصون بما لا يعلمون، فيقولون: إن محمداً مجنوناً، وكذاباً، وساحراً، وشاعراً، اتهاماً باطلاً. وهذا دعاء عليهم. لأن من لعنه الله تعالى فهو بمنزلة المقتول الهالك[١] فالخرص هو القول المبني على الظن الذي لا يقوم ولا يستند على حجة وبرهان، فهو مجرد

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤/١٧)

ظنون وتأويلات لا حجة فيها. وفي هذا كشف لهم، وتحذير منهم، وترهيب لهم من مسلكهم الذي يؤدي بهم إلى اللعن والطرد من رحمة الله تعالى.

ثم يزداد الوصف لحال هؤلاء الخرّاصون، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴾ أي: أن حالهم وصفتهم أنهم قد غمرهم الطغيان والعناد والاستكبار، فأصبحوا في عمى عن الحق، فَغَطَّى عقولهم. فالغمر هو ما يستحوذ على الشيء ويغشاه، حتى يحتويه من كل جهة، فيستره ويغطيه ويحجبه عن غيره. فقد غمر جهلهم وطغيانُهم واستكبارُهم قلوبَهم، فأصبحوا ممتنعين عما ينفعهم. وقد أوضح البيان أن هذا الغمر هو أنهم ﴿ سَاهُونَ ﴾ أي: غافلون وملتهون بالباطل حتى أشغل قلوبهم بالغفلة، وسترها عن الحق. بما يفيد قوة تماديهم في الباطل حتى جعلهم في غمرته ملتهون وغافلون، فحجبهم عن الحق. مما يفيد أن الإنسان إذا انغمس في الباطل حجبه عن الحق. فليتنبه ويحذر الإنسان من ذلك.

فإنهم في غيهم الذي غمروا وغمسوا أنفسهم فيه من الباطل والضلال والشرك، حتى استتروا به عن الحق. وفي وصف حالهم بدلالة الغمر ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴾ ما يبين عمق ما أحلوا أنفسهم فيه من الضلال والكبرياء والحسد الذي قادهم إلى رفض الحق المبين، فشأنهم الحقيقي هو أنهم قد اغتمروا، وتَغَطَّوا بالكفر إلى درجة الانغماس الذي استوعب قلوبهم وعقولهم، لأن كلمة الغمر تفيد كمال التغطية، كالذي يغتمر في الماء، فيحيط به من كل جانب، فيستره عما يحيط به، فلا يرى شيئاً. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الغمرة: الماء الذي يغمر القامة، فَضُرِبت مثلاً لما هم مغمورون فيه، من جهلهم وعمايتهم[١] فتَغَطَّت قلوبُهم بالكفر والحقد والحسد، والتعالي والكبرياء، فامتنعوا بما اغتمروا به من الباطل عن الإيمان بالحق المبين. كما أن السهو ﴿ سَاهُونَ ﴾ دلالة على عمق ما هم فيه من الباطل الذي حجبهم عن الحق. فقد أوضح البيان الكريم أنه من قوة هذا الغمر جعلهم ﴿ سَاهُونَ ﴾ غافلون وملتهون بالباطل حتى أشغل قلوبهم بالغفلة، وسترها عن الحق. بما يفيد قوة تماديهم في الباطل الذي جعلهم في غمرة منه، فحجبهم عن الحق. مما يفيد أن الإنسان إذا انغمس في الباطل حجبه عن الحق. فليتنبه ويحذر الإنسان من ذلك.

وقد بلغ قوة الغمر بهؤلاء المكذبين أنهم يستهزئون بيوم القيامة ﴿ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ يسألون سؤال استهزاء من قوة غمرتهم في الباطل. متى يكون ﴿ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ أي: متى تقوم القيامة، ويحصل البعث والحساب والجزاء؟ على سبيل الاستهزاء والتندر. فيأتيهم الجواب من الله تعالى ﴿ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴾

(١) الزمخشري، الكشاف (١٨٩/٣)

فإن الجزاء يقع عليهم يوم هم على النار ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ يُعَذَّبُون ويُحرقون. قال القرطبي رحمه الله تعالى: هو من قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره[١] فإن لم تؤمنوا وتصدقوا بما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم فسوف ترونه عندما يكون مصيركم النار.

فَيُقَال لهم حين هم على النار يُفتنون توبيخاً ومهانة ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ ذوقوا عذابكم وحريقكم ونتيجته، وجزاء تكذيبكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فإن هذا العذاب هو العذاب الذي كنتم تستعجلون وقوعه بكم، عندما كنتم تسألون عنه في الدنيا على سبيل السخرية والاستهزاء. ومن بلاغة البيان أن تم حذف القائل لهم ﴿ذُوقُواْ﴾ لتهويل القول، حيث تقول لهم الملائكة، من خزنة جهنم ﴿ذُوقُواْ﴾ وورد الخطاب لهم بدلالة الذوق، باعتباره أدق دلالات ومعاني الإحساس، فإن أشد أعضاء الإنسان للمحسوسات هو اللسان، الذي يتذوق به الإنسان أدق فروق مذاق الأطعمة الدقيق. بما يفيد دقة ما سينالونه من العذاب، وقوة تذوقهم له. كما نُسِبَت الفتنة إليهم ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ لبيان مسؤوليتهم عنها، فذوقوا جزاء فتنتكم، واختباركم وامتحانكم، الذي كذبتم به المرسلين.

ثم ورد لهم التعيين باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ فهذا المشهد الحاضر الذي أنتم فيه من العذاب هو ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فأنتم بأنفسكم ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فهذا ما كنتم تطلبون تعجيله على سبيل الاستهزاء والاستبعاد له. وقد أورد الله تعالى البيان والمصير بأسلوب يجعل الْمُخَاطَبين وكأنهم يعايشون الموقف تماماً. مما يفيد رحمة الله تعالى بالعباد إذ يحذرهم مما هم مُقْبِلين عليه، وكأنهم يشاهدونه ويعيشونه. كما يفيد هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم، والقرآن العظيم هداية إرشاد، وإنذار للكافرين، وتباشير بالخير للمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤/١٧)

ثم ينتقل البيان الكريم من الوعيد للمجرمين المكذبين بما يستحقون من العذاب والطرد من رحمته سبحانه وتعالى إلى بيان حال المتقين عند ربهم الكريم العظيم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ فإن الذين اتصفوا بالتقوى التي جمعت الخوف من الله تعالى، والرغبة والطمع فيما عنده تبارك وتعالى، فاجتهدوا في اتقاء ما يُغضب الله عَزَّ وجل، وامتثلوا بطاعة ربهم جَلَّ جلاله، وذلك بالسعي في رضاه، فإن هؤلاء في الآخرة ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي سيكونون في البساتين، وبين الأنهار، يتنعمون فيها. وقد بدأ وصف حال المتقين بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يفيد ثبوت ما سيكونون فيه من النعيم، وجاء السياق على وجه التحقق، فلم يكن على صيغة المستقبل، بالرغم من أن هذا في الآخرة التي سيعودون إليها مستقبلاً، لكنه ورد الوصف لحالهم وكأنه قد تحقق، إمعاناً في التأكيد، والتشويق والاطماع والترغيب لهذا الإنسان بأن يكون من المتقين ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ فأعطى السياق قوة في تظافر الإعجاز البياني مع الإعجاز الدلالي، وأفاد النص الكريم عظمة منزلة المتقين التي يجب أن يتسابق لها المؤمنون، والناسُ أجمعين.

ومن جميل البيان أن وصف اللهُ سبحانه وتعالى الأنهار بالعيون، وهي الينابيع التي ينبع منها الماء، ثم تجري كالنهر. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل[1] وهو قوله تعالى في سورة محمد ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ وفي ذكر العيون ما يدل على أن الأنهار منبثقة في جريانها من ينابيع متعددة، حيث جاء وصفها بصيغة الجمع ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ الذي يفيد الكثرة والتعدد والانتشار في جميع إنحاء الجنة، فأينما ذهب أهلها وجدوها تتدفق فيها. اللهم إنا نسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن عظيم عطائه للمتقين، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ قد أخذوا وحَصَلُوا على ما وعدهم ربهم من العطاء. ومن بلاغة البيان أن قد شمل قوله تعالى ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ دلالتين: إحداهما: أنهم قد أخذوا ما جاءهم عن الله تعالى في الدنيا بالعمل والتطبيق له. والثاني: أنهم قد حصلوا على ما وعدهم ربهم به في الآخرة. قال المفسرون: أي: ما

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٢)

أعطاهم الله من الكرامة[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: ما أعطاهم من الثواب، وأنواع الكرامات، قاله الضحاك. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: أي عاملين بالفرائض[٢] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: عاملين ما أمرهم به ربهم، مُؤدِّين فرائضه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفرائض[٣] وهذا من إعجاز بلاغة تراكيب السياق الذي جعل دلالة الآية الكريمة تستوفي المعنين والمقصدين بسياق واحد. فهم في الدنيا قائمين بالفرائض وعموم الطاعات، وفي الآخرة حاصلن على أنواع الكرامات التي وعدهم الله تعالى بها.

ثم يعلل تبارك وتعالى هذا العطاء وهذا التحصيل. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ فقد كان حالهم في الدنيا أنهم متصفين بالإحسان في أعمالهم، من الأفعال والأقوال، بفعل ما أمرهم الله تعالى به، وترك ما نهاهم عنه. وقد ورد الوصف بالإحسان لهم بأعيانهم، متجاوزاً لوصف أعمالهم وعموم طاعتهم بالإحسان، فجعل الإحسان وصف وصفة لهم بأعيانهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ وفي هذا غاية المدح والثناء لهم وعليهم. وكذلك في غاية البلاغة البيانية للمراد بأدق الوصف من التكريم والتبجيل لهم. مما يبين ويفيد أهمية الإحسان، وهو العمل بالطاعة على وجه الكمال والاستيفاء، اتباعاً للمأمور به، وابتعاداً عن المنهي عنه.

ثم يصف تبارك وتعالى شيئاً من عموم إحسانهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ والهجوع هو النوم بالليل. وهو خاص بالليل دون النهار. فكانوا قليلاً ما ينامون من الليل. مما يدل على اشتغالهم بالصلاة ليلاً. وهذا يؤكد أهمية التهجد بالصلاة في الليل، فإن لها منزلة عظيمة عند الله تعالى. وأن من أراد أن يكون من المحسنين فليتابع أوصافهم، ويسعى إلى تحصيلها بتطبيقها، والامتثال بها.

وأما الوصف الآخر لهم فإنهم يكثرون الاستغفار ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل. قال ابن زيد: السَّحَر هو السدسُ الآخر من الليل. مما يبين أهمية الاستغفار والاشتغال به في السدس الأخير من الليل. وكذلك من سماتهم قوله تعالى في وصف المتقين ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ وفي أموالهم ﴿ حَقٌّ ﴾ أي: نصيب، قد أوجبوه على أنفسهم ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ لمن يسأل العون والمساعدة، وكذلك في أموالهم نصيب لمن فقد المال ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أي: الفقير والمسكين، والمتعفف الذي لا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٦/٧)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥/١٧)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٠/٢١-٥٠١)

يسأل ولا يُشعر غيره بحاجته وعوزه، وتشمل دلالة المحروم كذلك مَن أُصيب بمصيبة في ماله، فاحتاج إلى معونة غيره له. ليشمل بذلك الحق: زكاة الأموال، وعموم الصدقات، والصلة والبر، وعموم الإحسان للغير. وفي قوله تعالى ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ ﴾ ما يفيد أنهم لم يستأثروا بالرزق، بل أوجبوا على أنفسهم، فاستقطعوا منه ما يَصِلُون به غيرهم من الأقارب وغيرهم من عموم المحتاجين.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى جانب التفكر والتأمل في مخلوقاته سبحانه وتعالى، التي تدل جميعها على عظيم خلقه وتدبيره، وكمال قدرته سبحانه وتعالى، والتي تُثبت وتدل على عظمة الله تعالى، وأنه الواحد الأحد، وأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى، كما تدل عظمة الخلق والتدبير على سهولة البعث والنشور والحساب والجزاء، وأنه ليس أمراً متعذراً، بل إنه على الله تعالى يسير. وأن واجب العباد هو طاعة ربهم سبحانه وتعالى.

فقال عَزَّ وجل ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ وإن لكم في خلق الأرض لعلامات وآيات ودلالات على كمال قدرة ربكم جَلَّ جلاله. فمن تأمل هيئتها وما عليها من الجبال والقفار، والبحار والمحيطات، وما يدب عليها من الدواب، وما يخرج فيها من الزروع لأيقن بكمال قدرته عَزَّ وجل. وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وأنه لا شريك له في ملكه، وأن كل مخلوق فقير إليه، وأن البعث بعد الموت أمر على الله تعالى يسير. وأن الإيمان به واجب على كل عبد من عباده.

ثم ينقلهم البيان الكريم بتدرج عظيم من التأمل في المحسوسات التي أما مهم إلى التأمل في ذواتهم، ومكونات أنفسهم، وبأسلوب غاية في شد الانتباه. حيث أورده جَلَّ جلاله بصيغة السؤال الاستنكاري عن غفلتهم للآيات المبثوثة في ذواتهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ فإن في أنفسكم دلائل قدرته، وعظيم صنعه، وكمال تدبيره التي تستوجب منكم الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاءكم به من الحق الذي لا ريب ولا شك فيه ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ أفلا تبصرون بأبصاركم وبصائركم في نفوسكم، وفي هيئة خلقكم؟ أين أنتم من هذا؟ سؤال استنكار عن غياب عقولهم عن هذه الدلائل العظيمة، والحجج الجليلة. وفي ذلك حث لجنس الإنسان بأن يتبصر ويتأمل ويتفكر ويتدبر. فلو تدبرتم في أساس خلقكم من نطفة، وما تمرون به من مراحل في بطون الأمهات، إلى ما تمرون فيه من أطوار متعاقبة، ومتباينة، وما جعل لكم من السمع والبصر والهيئة، والعقل والتفكير، واستثماركم الأرض وما عليها، وما بداخلها، وما أودع فيكم من القدرة على التعلم والتعليم والاختراع وتحصيل المنافع، وما أودع فيكم من عواطف المحبة، وعواطف الود، التي تجمع بينكم، ودواعي القوة والغضب التي تدفعون بها الشر عنكم. فلو تأملتم في أنفسكم لأدركتم عظمة ربكم، وأنه لا معبود بحق إلا هو، وأنه لا شريك له، وأنه القادر على كل شيء، ولألزمكم ذلك التبصر في أنفسكم أن تؤمنوا برسولكم، وتطيعوه، وتستجيبون لربكم ولرسوله صلى الله عليه وسلم. مما يبين أهمية التفكر في آيات الله تعالى المبثوثة في الكون كله، وفي نفس الأنفس، فإنها دلالات عظيمة على عظمة الله تعالى وقدرته ووحدانيته.

ثم بعد بيان دلائل قدرته سبحانه وتعالى في الأرض ثم في الأنفس، ينقلهم تبارك وتعالى بالسياق الكريم إلى التأمل في السماء، وعلاقتها بمصدر الرزق، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يلفت سبحانه وتعالى الأنظار بالتفكر والتأمل إلى جهة أرزاقهم المرتبطة به تبارك وتعالى، وكذلك إلى مادة وأسباب أرزاقهم، بما ينزل من الأمطار ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ وهو المطر وما ينتج عنه من الإنبات، وحصول الأرزاق بالزرع والبيع، والتجارة به، وما ينجم عن ذلك من نقله من مكان لآخر، ومن بلد إلى بلد. فهو مفتاح الأرزاق جميعها. وقد شمل قوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قرار الأرزاق بأنه بيد الله تعالى في السماء، وكذلك ما ينزل من الأمطار لسقياكم، وسقيا بهائمكم، وما ينبت به من الزرع لكم. وكذلك موقع ما وعدكم به من الجنة بأنها في السماء. وأن الحياة الآخرة في العلو حيث السماء.

ومن بديع البيان ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى، فقال: فعدل عن ذكر المطر إلى الرزق، إدماجاً للامتنان في الاستدلال. وفي تقديم المجرور ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ على متعلقه ﴿ رِزۡقُكُمۡ ﴾ للتشويق، وللاهتمام. وعطف ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ إدماج بين أدلة إثبات البعث، لقصد الموعظة الشاملة للوعيد على الإشراك، والوعد على الإيمان إن آمنوا، تعجيلاً بالموعظة عند سنوح فرصتها[١] مما يبين قوة البيان، وقوة تراكيب ألفاظه، وإعجاز سياقه الذي لا يمكن أن يكون إلا من رب العالمين.

ثم عطف ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ على مصدر الرزق أنه في السماء ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي: الجنة التي وعدكم ربكم بها لمن أطاعه، بأنها في السماء التي يأتيكم منها الرزق وقرار الرزق. وفي هذا لفت الانتباه على غاية الترابط بين علاقة السماء بالرزق وبين الارزاق، وكذلك بالجنة، التي يُثبتها لكم ويصدقها منشأ ومصدر الرزق. بما يفيد: كيف تكذبون بالجنة والآخرة، ورزقكم يأتيكم من السماء؟ فهو في غاية الدقة البيانية التي تستثير العقول للتأمل والتفكير، فكيف تستبعدون البعث والجنة والنار، وأنتم ترون مصدر رزقكم في السماء التي هي موعدكم أجمعين؟ سؤال يستثير الذهن نحو التفكر الذي يقود إلى الإيمان والتصديق. مما يُعلم المؤمن كيف يُعلم، وكيف يدعو، وكيف يستثير العقول نحو التفكر والتأمل، ثم الاستدلال بالحقائق المنظورة على الغيب الذي لا يراه. فإنه أسلوب في غاية العظمة، وقوة الاستثارة.

ثم يُقسم الله تبارك وتعالى بنفسه العظيمة الكريمة بأن ما وعدكم به أيها العباد لحق كائن كما وعد به ربكم عَزَّ وجل. فقال جَلَّ شأنه ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ أقسم الله تعالى لخلقه

[١] ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٧٦/١٠)

بنفسه جَلَّ جلاله ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فورب السماء العالية التي ترونها، والأرض المنبسطة التي أنتم عليها تعيشون ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ أن ما وعدكم به من البعث والحساب، والجزاء، والجنة والنار ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لصدق بأنه كائن وحاصل كما وعدكم به، فلا شك ولا ريب فيه أبداً.

فقد زاد البيان في تقرير وتأكيد وقوع وتحقق ما وعد به سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ فبعد القسم منه سبحانه وتعالى بتحقق ما وعد به، يزيد جَلَّ جلاله في تأكيده بِمَثَل يُقَرِّب فيه الغيب بما هو حال كل أحد من الناس من النطق ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ إنه لحقيقة كائنة كما أنكم تنطقون حقيقة لا تمارون ولا تشكون في نطقكم. بل ومن قوة البيان أن أورد سبحانه وتعالى النطق بصيغة المضارع المستمر ﴿ تَنطِقُونَ ﴾ لإظهار الشاهد والدليل المستمر معكم في كل وقت وحين، وهو النطق. وفي هذا البيان بالقسم من الله تعالى ما يثير في النفس الإدراك المطلق والعميق في تأكيد محبة الله تعالى للجميع أن يدخلوا في طاعته، فيفوزون بالجنة، ولكن أكثر الناس أخذتهم العزة بالإثم، والتمادي في الكفر، بالرغم من الآيات الباهرات التي تثير عقولهم ليتدبروها.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ
﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

بعد أن أثار تبارك وتعالى عقول وحواس الْمُخَاطَبين إلى حقيقة ما وعد به من البعث والنشور، والحساب والجزاء والجنة والنار، من خلال التأمل في آياته الكونية، وفي الأنفس البشرية، ينتقل البيان الكريم إلى الحقائق السابقة من الأمم الغابرة التي جاءتهم رُسُل ربهم بالبينات الواضحات الساطعات، ولكنهم كذبوا وأنكروا كما كذب المكذبون في عهده صلى الله عليه وسلم. فبدأ جَلَّ جلاله بقوم لوط، حينما جاءت الملائكة

إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهم في طريقهم إلى قوم لوط. وهم ملائكة العذاب التي أرسلها الله تعالى إلى قوم لوط عليه الصلاة والسلام. فقال تبارك وتعالى ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ هل جاءك ووردك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم خبر حديث ضيف نبي الله إبراهيم مع ضيوفه الموصوفون بأنهم مكرمين؟ هل سبق وأن رُوي لك ذلك؟ سؤال يستثير الانتباه، والتعجب من أمر لم يسبق معرفته، فهو سؤال يشد الانتباه لهذا الحدث الذي لم يسبق له به معرفة صلى الله عليه وسلم. مما يستثير أذهان وعقول الْمُخَاطَبين، وبما يؤكد أن هذا البيان العظيم هو من الله رب العالمين. كما أفاد أسلوب البيان أنه حدث يحمل أمراً في غاية الأهمية.

فابتدأ الله تبارك وتعالى تلاوة الحدث بسؤال مُوجَّه للرسول صلى الله عليه وسلم، وبصياغة تستوعب جميع المخاطبين، وهو سؤال تعجيب، لبيان عظمة أحداث الخبر، وليستثير به ذهن الْمُخَاطَب، وتشويقه لمتابعة أحداثها العظيمة، وفوائدها الممتلئة بالدروس والعبر. ولبيان أن الأمور والأحداث في الكون كثيرة، ومتنوعة الأوجه، وأنها عظيمة الفوائد لمن تدبرها واتعظ بها. وأنها تقرر أن الله تعالى هو رب العالمين، وله الملك والسلطان، كما أن له حق العبودية المطلقة من عباده. ووجوب طاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وبدأ البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ ﴾ هل بلغك أيها النبي؟ صلى الله عليه وسلم، وهل بلغك أيها الْمُخَاطَب؟ ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ وسَمَّاه تبارك وتعالى ﴿ حَدِيثُ ﴾ بما يفيد أنها محادثة، ولكنها مع ضيوف موصوفون بأنهم مُكرمين. فهو وصف عظيم لأولئك الضيوف مما يستدعي جميع عوامل التشويق، لمعرفة مضمون وشأن تلك المحادثة، وأولئك الضيوف الْمُكْرَمِين، وما دار فيها من حديث مع خليل الله تعالى ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ وقد اقتصر مطلع البيان على أنه حديث، ولكنه مع ضيوف موصوفون من الله تعالى بأنهم مُكرمين. لتعيين أن المقصد والمهم في القضية هي المحادثة التي ليست محادثة عادية، بل إنها محادثة ذات شأن ونبأ عظيم، وما تضمنته من الأخبار. وهو سؤال استفهام واستخبار على سبيل التقرير بعدم علمه صلى الله عليه وسلم بتفاصيل ذلك الحدث. فدلالة سياق الآية الكريمة هنا هو تقرير بأنه إليك بها من كتاب ربك سبحانه وتعالى صدقاً وعدلاً، مع علو السند، فهي من الله تعالى إليك بواسطة الوحي من جبريل عليه السلام. وكذلك في السؤال تشويق لتفاصيلها التي سَتَرِدُ عليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك فيها تشويق لكل من يقرأ القرآن العظيم، أو يُتلى على مسامعه، وفيه تقرير بأنه قد أتاك الآن تفاصيل قصة ضيوف إبراهيم عليه السلام المكرمين، وما فيها من الأخبار، ومن الأحداث العظيمة، والمليئة بالعبر، وأنها محط تأمل وتدبر.

ومن فوائد السياق أن ﴿ هَلۡ ﴾ تأتي بمعنى (قد) قال ابن الأنباري: وهذا معروف عند اللغويين، أن تأتي (هل) مُعَبِّرة عن (قد). كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب (اللهم هل بَلَّغتُ) يريد: قد بَلَّغت[١] ويحمل السؤال التعظيم والتبجيل والتفخيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وحديث الملائكة له، وما فيها من العبر والدروس، التي ستتضح من خلال سياقها وعرضها الكريم. وفي هذا معالجة وتسلية لما يجده صلى الله عليه وسلم من عناد قومه له، ومن أذيتهم له عليه الصلاة والسلام، وهو الأمر الذي واجه الأنبياء من أقوامهم. مما يفيد أهمية الأسوة في التذكير على الثبات، والاستمرار في مواجهة الصعاب، وما يكون من الأعداء، والحسَّاد، والمنافقين، والمتكبرين والمتغطرسين، والمغرورين بالحياة الدنيا. كما يفيد هذا في الجانب التعليمي، وفي عموم الحياة، ما يؤكد أهمية دراسة سير الأنبياء والمرسلين والصالحين من العباد، فإن فيها تسلية عن المصاعب، ومنهج في شق الطريق، كما أن في ذلك بيان ثابت، وتقرير قاطع بأن الله تعالى مع المتقين بعونه وتسديده لهم، ومواساتهم بالخير.

ومن بلاغة البيان، وغزارة معطياته الدلالية أن سياق قوله تبارك وتعالى ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ استجمع أموراً غاية في الغزارة لمعطيات معانيها، ومنها إثبات الوحي، وإثبات أنه لم يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم معرفة تفصيلية بقصة إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه من الملائكة. وفيه تقرير بأنه قد أتاك الآن ما نقصه عليك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. مع ما في ذلك من التشويق، والتعظيم لشأن إبراهيم عليه السلام. فشأنه كان محل تأمل وتدبر، وتأسي واقتداء، فشأنه شأن عظيم بما حكاه الله تعالى عنه.

فبعد بلاغة البيان في إثبات نفي سابق العلم بحقيقة قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبما تقرر به الإثبات بأنه الآن قد أتاك خبر نبينا إبراهيم عليه السلام حين جاءه ضيوف مكرمين. قال تعالى بعد ذلك ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ حين دخلوا عليه مبتدئين لقاءهم معه بالسلام، الذي يحمل دلالة المسالمة والتطمين والاطمئنان. وقد جاء وصف هذه المقابلة بالاستنكار من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لضيوفه المكرمين، حين وصفهم بالمنكرين ﴿ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ وفي وصف هذا المقابلة بالاستغراب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ضيوفه ما يشد عامل التشويق لمعرفتهم.

كما أن من فوائد إيراد هذه القصة هو إنباء قومه صلى الله عليه وسلم بما ليس لهم به علم. فيا أيها النبي أخبر قومك وأعلمهم عن ضيف إبراهيم، وتفاصيل مجيئهم، وما حصل بذلك من الخير لإبراهيم، وإيقاع

[١] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٠/٥)

العذاب على المجرمين من قوم لوط، فإنها التفاصيل التي لا يعرفونها، فكانت آية من آيات الله تعالى الدالة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد اجتمع في هذا الحدث لأبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام مجموعة من المشاعر المتباينة، التي اجتمع فيها الاستغراب، والدهشة، والخوف، والسرور والرجاء.

ومن جميل السياق القرآني الكريم أنه شد انتباه الْمُخَاطَبين، بعدم التعريف بالضيف ابتداء، ليتشوق السامع والقارئ لمعرفة أولئك الأضياف، خاصة وأنهم موصوفون بالمكرمين، ومن دقائق المعاني أن ورد الضيف بصيغة المفرد، على أنه واحد ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بالرغم من أنهم أكثر من واحد، بدلالة وصفهم بأنهم ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ليعطي دلالة الكثرة والتعدد. وذلك لإفادة أن صفتهم واحدة، وأنهم في مهمة واحدة، وبمنزلة الضيف الواحد، كما أن الضيف مصدر، فيجوز توحيده أو جمعه. وورد في اللغة كما ذكره الأصفهاني رحمه الله تعالى: أن أصل الضيف الميل، والضيف من مال إليك، نازلاً بك. وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم، وقد يُجمع، ويُقال: أضياف، وضيوف، وضِيفان[1] ثم تكرر تأخير التعريف بالضيوف، ليتناسب التأخير مع تسلسل الحدث، وليكون أكثر تشويقاً.

كما استمر التشويق دون بيان علة وسبب اندهاش نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام منهم، وقد جِيء بحرف ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى عنهم ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ والتي أفادت المفاجأة. بأنه حين دخل الضيوف على إبراهيم فتفاجأ بهم، فورد السياق بصيغة الحال من المفاجأة التي حصلت لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ فأعطى هذا الحرف ﴿إِذْ﴾ دلالة المفاجأة. أي: فاذكر لعبادي حين دخل الضيوف على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ فبدأ الضيوف بالسلام على المضيف لهم، وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي سَلَّمْنا سلاماً. فَرَدَّ عليهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله لهم ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وضم إلى سلامه استنكاره لهم. وللمفسرين في سبب إنكاره لهم أربعة أقوال: أحدها: لأنه لم يعرفهم. قاله ابن عباس. والثاني: لأنهم سلموا عليه، فأنكر سلامهم في ذلك الزمن، وفي تلك الأرض. والثالث: لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. والرابع: لأنه رأى فيهم صورة البشر، وصورة الملائكة[2] وكذلك أن إنكاره لهم قد يكون بسبب امتناعهم عن تناول الطعام الذي قربه إليهم، فعندما أدخلهم بيته، أسرع في إعداد الطعام، فأحضر لهم عجلاً حنيذاً، فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه، خاف منهم، وأنكر عليهم امتناعهم عن الأكل، وهو البيان الذي قد طُوى ذكره هنا اكتفاء بما ورد

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٠٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٩/٧)

من تفاصيل لها في سورة هود. مما يبين أن من مميزات تكرار القصة في القرآن هو بسبب إتيان سياقها بأسلوب متغاير في الزيادة والاختصار الذي يناسب مقامها من سياق وأهداف السورة. وهي ميزة بيانية، ومنقبة بلاغية. فجميع تلك المعاني من الأسباب التي أدت بنبي الله إبراهيم عليه السلام أن يستنكرهم. ومن الفوائد: أن مما يدل على كثرتهم أن سماهم ووصفهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بصيغة الجمع ﴿ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ بما يفيد أنهم جماعة. وكذلك قوله تعالى عنهم ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ فدلالة ﴿ فَقَالُواْ ﴾ تدل على الكثرة.

ثم مع نكارته لهم إلا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسرع إلى إكرامهم، فقال تبارك وتعالى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ فاتجه إلى أهله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بدلالة كلمة ﴿ فَرَاغَ ﴾ التي تفيد الميل والانسلال والاتجاه السريع، بحيث لا ينتبهون لمراده من الإكرام بالطعام. فمال واتجه مسرعاً إلى أهله ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ ثم اختصر البيان الكريم فيما لا حاجة لذكره من إعداد الطعام، فانتقل مباشرة إلى إحضار الطعام لهم ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ فجاء لهم ﴿ بِعِجۡلٖ ﴾ أي: بخروف ﴿ سَمِينٖ ﴾ أي: ممتلئ لحماً وشحماً. مما يدل على كرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسرعة إعداد الطعام لضيوفه، ومباشرته لهم به، قبل أن يستفسر ويعرف من يكونون، ومن أين هم قادمون. مما يفيد أن من إكرام الضيف مبادرته بالطعام.

ثم بعد أن جاء بالخروف السمين الذي قد أعده وشواه ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فوضعه إلى أقرب ما يكون منهم ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ ثم حضهم على الأكل بقوله لهم ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فقال لهم على سبيل التحضيض والترحيب والتلطف: هلا أكلتم من هذا الطعام. مما يبين أدب الضيافة، التي منها السرعة، وعدم إشعار الضيوف بما سيكون من ضيافته لهم، وكذلك اختيار أجود ما يملك الْمُضِيف، حيث جاءهم بخروف سمين، قد شواه لهم. ولكنهم امتنعوا، وهي ليست من عادات الضيوف أن يمتنعوا عن طعام الْمُضِيف ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ فحدث في داخل نفس إبراهيم عليه الصلاة والسلام خوفاً أضمره في داخل نفسه، لامتناعهم عن الطعام الذي تَكَلَّف بصنعه وإعداده، ومخالفتهم لعادات الضيافة. فخاف منهم. وأضمر ذلك الخوف في نفسه، عليه الصلاة والسلام، فبادروه بما يرفع الخوف عنه. وقد أفادت دلالة ﴿ فَأَوۡجَسَ ﴾ معنى الإضمار، قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: أضمر في نفسه خوفاً[١] والإضمار هو الذي لا يخرج على ملامح ومظهر الإنسان. ولكن الملائكة بما آتاها الله تعالى من القدرة أدركت

---

(١)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/ ٢١٠)

خوفه، وربما ظهرت ملامح ذلك على وجهه عليه الصلاة والسلام، وإن حاول أن يخفيه، وذلك لمكونات الطبيعة البشرية.

وهنا، وفي هذه الحال كشفت الملائكة عن حقيقتهم بما أخبروه ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فباشرت الملائكة عليهم الصلاة والسلام الشأن والأمر بإزالة الخوف ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ فأزالوا خوفه الذي هو أهم ما يكون في تلك الحظة، وفي ذلك الموقف، فأعلموه بأنهم ملائكة مُرسَلُون. ثم أعقبوا ذلك بالبشارة ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فبشروه بأن يُولد له غلام، قد اتصف بأنه ﴿عَلِيمٖ﴾ كثير العلم عندما يبلغ مبلغ الرجال، فيكون بعد بلوغه من أهل العلم بدين الله تعالى، بل أفادت دلالة ﴿عَلِيمٖ﴾ المبالغة في كثرة علمه. والْمُبَشَّر به هو إسحاق عليه الصلاة والسلام. قال الطبري رحمه الله تعالى: وإنما قلت: عُني به إسحاق، لأن البشارة كانت بالولد من سارة، وإسماعيل لهاجر، لا لسارة[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والجمهور على أن الْمُبَشَّر به هو إسحاق[٢] وذلك فضل الله تعالى على نبيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من امرأة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، التي هي: سارة، عندما سمعت البشار التي تفاجأت بها، فقال تعالى عنها ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ فاتجهت امرأته عليه السلام إليهم وهي رافعة لصوتها من هول وشدة المفاجأة. فهو وصف لحالها عندما سمعت بهذه البشارة الغريبة التي لا تتوافق مع حالها وعمرها وعمر زوجها. فلما سمعت امرأته عليه السلام خبر البشارة أقبلت إليهم ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ فاتجهت امرأته عليه السلام إليهم ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ من الصرير، وهو رفع الصوت المشتمل على الشدة من ارتفاع الصياح. أي: في صيحة شديدة الارتفاع والعلو، وهو ما يكون من عادة أغلب النساء في مثل هذه المواقف. مما تُطلقه من صوت التهويل عندما تسمع أو ترى شيئاً مذهلاً. وأما الحال الثاني من هيئتها فهو: ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ أي: لطمت وجهها بكفها تعجباً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لطمت[٣] وقال مجاهد رحمه الله تعالى: ضربت جبينها تعجباً. ومعنى الصك هو: ضرب الشيء

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٧/٢١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٢/١٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٩/٢١)

بالشيء العريض[١] وهو تعبير تلقائي شائع عند النساء، فكان ذلك الشأن والأمر منها عندما أصابتها فرحة البشارة التي هي كرامة من الله تعالى، إذ كانت عقيم. وزوجها شيخ كبير عليه الصلاة والسلام.

ثم انتقل البيان من وصف حالها إلى بيان قولها الممتلئ بالتعجب، فقال تعالى عنها ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فأسندت الامتناع من إنجاب الولد إلى كونها امرأة عجوز ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾ أي: يمتنع منها الحمل، كما هو الحال في جنس النساء. وبالتالي كيف يكون مني الحمل وأنا بهذه الصفة من العجز؟ ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾ وكذلك كونها ﴿عَقِيمٌ﴾ لم تلد قبل ذلك. فأظهرت الموانع السببية التي يمتنع منها الحمل. فكان جوابها يحمل سؤالاً واستفهاماً ممتلئ بالتعجب.

فقالت لها ملائكة الله تعالى جواباً على استغرابها من حصول البشارة مع تلك الموانع، قالت لها قولاً يبين لها أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه إذا أراد شيئاً زال كل مانع، وتعطل كل سبب. لأن الله تبارك وتعالى هو من خلق الموانع، وهو مَن سَنَّ السنن. ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قالت الملائكة جواباً لاستغرابها: كذلك حكم ربك. فهو كائن كما حكم عَزَّ وجل. فلا تتعجبي من أن يرزقكم الله تعالى بغلام عليم، وأنتما في هذا السن، وهذا الحال. مما يبين لكل مؤمن ألا ييأس مهما كانت الأسباب والموانع. فإن الله تعالى هو رب الموانع والأسباب، وأن كل شيء تحت أمره وسلطانه. فلا يأس مع تعلق القلب بالله جَلَّ في علاه. ثم أكدت الملائكة عليهم السلام بتحقق ذلك بوصفهم لربهم عَزَّ وجل بما له من الصفات العظيمة الجليلة. فقالوا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إن الله تبارك وتعالى هو لا غيره المتفرد بالحكمة فيما يفعل ويشاء، وهو العليم بكم وبما خصكم، وجعله لكم من الكرامة والبشارة.

وقد بدأ البيان بحرف التوكيد الملتصق بضمير الجلالة سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُۥ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، بأنه ﴿هُوَ﴾ لا غيره المتصف بأنه ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فأفاد البيان حصر كمال ذلك لله تعالى دون غيره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه،

(١)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٠/٧)

وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

ومن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته التي منها إنزال الكتاب، القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هداية وحجة لمن يصدق ويؤمن به. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

ومن كمال صفاته عَزَّ وجل أنه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وكذلك هي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة علمه وسعته، فهو الذي لا يغيب عنه شيء أبداً. فإن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون. وما قيل، وما يُقال، وما سيقال قبل أن يُقال. ويعلم ما توسوس به النفوس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مُطَّلِع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى يصرف الشر ويجلب الخير. وأنه على كل شيء قدير، وأنه يسخر ما يمتنع عن المؤمن من الخير، ويكتب له ثواب جهده وجهاده لنفسه. وكذلك تشمل دلالة ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الترهيب لغير المؤمنين، بأن ربكم يعلم ما أنتم عليه من كل وجه وحال، ومن النوايا، والأعمال، والأقوال، فلا تخفى عليه منكم خافية.

وبعد أن عرف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حقيقة ضيوفه، بأنهم ملائكة، مُرسَلُون من ربهم سبحانه وتعالى، وذهب عنه الروع واطمأن بهم، وجاءته البشرى بالولد العليم، فهنا خاطبهم بسؤال عن شأنهم الذي أتوا من أجله ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ما شأنكم؟ وما الأمر العظيم الذي أُرسلتم به؟ وقد سألهم بدلالة: الخطب ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ لأن الخطب هو الأمر والشأن العظيم والمهم.

فأجابوا بأسلوب التشويق، حيث بدأوا بالوصف دون تعيين وتحديد من أرادوهم بالعذاب، وهم قوم لوط، كما ورد في سورة هود. فقال تعالى عن جوابهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ فقد ذكروا مَنْ أرادوهم بما هم عليه من الكفر والفجور دون تعيين لهم ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ فنحن مرسلون إلى قوم قد اتصفوا بالإجرام، وهو الخروج عن الحق إلى الباطل، وبما يفيد أن حالهم قد تعاظم إلى هذا الوصف الذي يستحقون به العذاب الشديد.

ثم استمر الوصف دون التعيين والتحديد، للمزيد من التهويل لشأن جُرمهم، وما يستحقون من العذاب ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ فإن الله تعالى أرسلنا لهؤلاء المجرمين حتى نرميهم بحجارة. وهذه الحجارة هي

﴿ مِّن طِينٍ ﴾ أي: من طين متحجر ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ فإن من مزيد صفاتها أنها ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ مُعَلَّمَة بعلامات من عند الله تبارك وتعالى، فهي مُعَدَّة من عند الله عَزَّ وجل، إيذاناً بنفاذ أمره، وشدة عذابه سبحانه وتعالى لهم، وإمعاناً في بغض الله تعالى لهم، وإهانة لهم، لِمَا كانوا يعملونه من الفاحشة العظيمة في جرمها. وهذه الحجارة مخصوص بها المسرفين ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ الذين تمادوا وبالغوا وأوغلوا في الفجور، فقد تمادوا في الطغيان والكفر، وإتيان الرجال دون النساء.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن عنايته بالمؤمنين. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلما أراد الله تعالى إهلاك قُرى لوط عليه السلام أخرج منها مَن كان فيها من المؤمنين ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فلم يكن فيها إلا بيتاً واحداً من المسلمين، وهو بيت رسول الله لوط عليه الصلاة والسلام. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لوط وابنتاه[١] مما يبين ويفيد عناية الله تعالى بالمؤمنين، وحفظه لهم مما يصيب المجرمين من العذاب. فإنهم في حفظ الله تعالى ورعايته.

ثم يخبر الله عَزَّ وجل عن قدرته وحكمته، بأنه لم يُبْقِ منهم أحداً، ولكن ترك فيها آثارهم باقية للمعتبرين الذين يخافون عذاب ربهم تبارك وتعالى، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وأبقينا في قرية قوم لوط من الآثار ما يدعو غيرهم إلى الاعتبار. وهؤلاء الذين يعتبرون بها موصوفون بالصفات التي تحملهم على أخذ العبرة والموعظة مما أصاب غيرهم ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فهم الذين يخافون عذاب ربهم عَزَّ وجل. لأنهم هم الذين يعتبرون فينزجرون، وينتفعون بالمواعظ والآيات والنُّذُر. مما يفيد أن من كان ساهياً وموغلاً مع الشيطان، فاستحوذ عليه هواه واستكباره فلن ينتفع. مما يعزز في القلوب بهذا البيان العظيم التحذير من الباطل، ومن هوى النفس، ومن الشيطان ومسالكه. وأن على الإنسان أن يتواضع للحق، ويأخذ به، ويلزمه، ويسير معه. وألا يطاوع الشيطان وهوى النفس.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

---

(١)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢١٠)

بعد أن أخبر الله تعالى عن هلاك قوم لوط، ينتقل البيان العظيم من الله رب العالمين بالموعظة العظيمة إلى مظاهر الآيات والمعجزات البينات التي أظهرها الله تعالى على موسى عليه الصلاة والسلام حين أرسله إلى فرعون وقومه. تحذيراً وتعليماً للناس على وجوب طاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، حتى لا يصيبهم ما أصاب من كان قبلهم من الأمم السابقة التي كفرت وكذبت بالمرسلين. فقال تعالى ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وكما أننا تركنا في إهلاك قوم لوط آيات لمن خاف عذاب ربه، فكذلك ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ الذي آتيناه المعجزات ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: حينما أرسلناه إلى فرعون وقومه. وقد خص هنا فرعون بالرغم من أن الرسالة شاملة له ولقومه، وذلك لإظهار قوة جبروته على قومه، وسيطرته عليهم، واستعبادهم، وبالتالي فإنهم تبعاً له. وفي هذا بيان وإظهار لأثر التقليد والاتباع الأعمى، إذ يجعل الاتباع في طاعة عمياء، من غير تبصر وتَفَهّم لمصالحهم.

ثم يذكر تبارك وتعالى أنه أرسل موسى عليه الصلاة والسلام بالحجج المعجزة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ فقد أرسلنا رسولنا موسى بالحجج والبراهين العظيمة، التي لا يمكن أن ينكرها إلا جاحد ومكابر، وذلك لقوة دلائلها التي هي بمثابة السلطان بالحق، من شدة قوتها وظهور دلائلها بأنها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله رب العالمين. وسمى الله تبارك وتعالى تلك المعجزات بالسلطان ﴿بِسُلْطَٰنٍ ﴾ وذلك لإظهار قوتها، بأنها ذات أثر مُؤثر على من رآها، فهي كالسلطان من قوة دلالاتها، فلا يحيد عنها إلا مكابر، بل أكد قوتها بقوة الإبانة، والظهور، فقال تعالى ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ سلطان واضح لا شبهة فيه. بحيث لا ينكرها إلا معاند ومكابر.

وهي تلك الآيات التي منها العصا، حيث تحولت عصاه إلى أفعى، فالتهمت ما ألقاه السحرة من العصي. حين سحروا أعين الناس، فرؤها حيات تسعى، فألقى موسى عليه الصلاة والسلام عصاه، فالتهمت جميع ما ألقاه السحرة من العصي. فسجد السحرة لله تعالى وآمنوا، وكذلك بياض اليد. عندما أخرج موسى يده من جيبه فإذا بها بيضاء من غير مرض ولا علة. فكانت مُتلألئة نوراً ساطعاً أبيضاً من غير شيء يشينه عليه الصلاة والسلام. ولكن فرعون تكبر وتولى عن الحق. فقال تعالى ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ فبعد أن رأى فرعون آيات الله تعالى الباهرات، تكبر وابتعد بنفسه عن الانقياد للحق. فكانت هيئة تصرفه هي هيئة المتنائي والمتباعد والمستغني. فتعاظم بملكه وجبروته على تلك الآيات والحجج ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: بمن يعضدونه، وهم جنوده وقوته التي كانت له بمثابة الركن الذي يتقوى به البنيان، فَرُكْنُ الشيء جانبه الأقوى. فتعزز بملكه وقوته. ومن ذلك قول لوط عليه السلام لقومه عندما هرعوا إليه رغبة في ضيوفه، فقال عليه ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي: لو أستطيع أن أعتصم وأنظم إلى عشيرة أو جماعة لمنعتكم بهم، ليدل على أن معنى الركن هو القوة التي يعتصم بها الإنسان.

فتولى فرعون في غروره، واعتصم بما لديه من قوة، معتقداً أنها تنصره على نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وتنجيه من عذاب الله تعالى، واصفاً موسى عليه السلام وآياته بأنها لا تخلو من أن يكون موسى من فئة السحرة، أو مجنون ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ ﴾ فوصفه بأنه من أهل السحر والخداع. الذين يسحرون أعين الناس. ثم جعل خياراً واحتمالاً آخر ﴿أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ فإن لم يكن ساحراً فهو مجنون. والمتأمل يجد البعد الشاسع عن هذين الاحتمالين. فتصرفات موسى عليه الصلاة والسلام تُثبت سلامة العقل وكماله، وتنفي عنه أضداد التعقل. كما أن السحر يقع على العيون، وآيات موسى عليه الصلاة والسلام حقيقة كما هي. بدليل شهادة السحرة أنفسهم، إذ آمنوا، وتحملوا تبعات كل ما يكون من شدة فرعون لهم على إيمانهم. كما ورد ذلك في سورة: الأعراف. وسورة: طه. وسورة: الشعراء: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ﴾. مما يدل على عظيم افترائه، وقوة تعاظمه على الحق، وقوة جبروته على قومه، إذ لم يخالفوه، بل انقادوا لباطله بالرغم من وضوح الآيات والحجج التي كانت سلطاناً على العقول بقوة دلائلها.

ثم يخبر الله تعالى بضعف فرعون أمام قوة الله تعالى، إذ لم يعصمه ركنه من الأعوان والجند الذين تعزز بهم من بطش الله تعالى به في البحر غرقاً. فقال تعالى ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ فقد تولينا أمر فرعون وجنوده، فطرحناهم في البحر غرقاً ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ بما يفيد شدة الانتقام الممتلئ بالاستحقار له ولجنده وقوته، والتقليل من شأنهم. فالأخذ في هذا السياق والموقف دليل على شدة الانتقام المصاحب للاستخفاف بهم، وبما كان منهم. فعندما استمر طغيانهم وعنادهم وبغيهم ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ فطرحناهم بهوان وإذلال لهم ﴿ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ أي: في البحر. والنبذ هو: الطرح والرمي ﴿ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ ﴾ أي: جعلناهم في البحر مطروحين، أي: بطريقة الرمي والطرح لهم بحقارة وتفاهة لهم، فلم تكن لهم قيمة ولا وزن عند ربهم تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ أي: في وضع وفعل يلام عليه. أي: مستحق للوم بما ادَعَاهُ لنفسه من ادعاء الربوبية لنفسه، وتكذيب موسى عليه الصلاة والسلام، وإنكار سلطان الحجج والآيات الواضحات البينات التي أتى بها موسى عليه الصلاة والسلام. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ إنه من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه عَزَّ وجل. استحقاراً لهم، واستقلالاً لعددهم[١] وفي هذا بيان لشأن الله تعالى وعزته وعظمته، وحقارة من لا يطيعه ولا يمتثل أمره وهيبته عَزَّ وجل. مما يدل على أن الله تعالى دبر هذا الأمر له ولجنوده لقاء ما كان من فجوره وطغيانه. وليدرك العبد أن الله تعالى فَعَّال لما يريد. فينتبه من المعصية، ويعتصم بالله تعالى، ويتوكل

(١) الزمخشري، الكشاف (٤١٢/٣)

عليه، فهو المانح والمعطي. وهو الذي يعاقب بما يراه من العقاب، فليحذر المؤمن وجميع العباد من معصية الله تعالى. وفي هذا تهديد لمن استكبر على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكل من يحارب دين الله تعالى.

ثم ينتقل الوعظ إلى بيان ما كان من قوم عاد، إذ كفروا وكذبوا برسولهم هود عليه الصلاة والسلام، فنالهم العذاب الشديد. فقال تعالى ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ وإن في شأن عاد لآيات وعبر ومواعظ لكم أيها المكذبين برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ حين أنزلنا عليهم عذابنا، فحاقت بهم الريح ﴿ٱلْعَقِيمَ ﴾ التي لا خير ولا بركة فيها، فهي متصفة بالعقم، فلا تلد ولا ينجم منها خيراً، ولا يحصل منها نفعاً، كتلقيح الأشجار لِتُثْمِر، ولا تحمل سحاباً ليمطر، بل مهلكة لهم، ومفسدة لحياتهم. فاتصفت بأنها ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ فما تترك شيئاً حلت ومَرَّت به ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ أي: المتهالك المتفتت. أي: إلا أحالته وجعلته متهالكاً متفتتاً، فأنهكته وقضت عليه. فجعلته ميتاً. مما يبين أنها أهلكتهم، فأماتتهم، وأماتت مواشيهم، وحيواناتهم. بما يفيد أن عليكم أيها الناس بالاعتبار والاتعاظ مما أصاب الأمم السابقة الهالكة.

ثم انتقلت الموعظة إلى ما كان من قوم ثمود، الذين كذبوا برسولهم صالح عليه الصلاة والسلام، فأهلكهم الله تعالى بالصاعقة وهم ينظرون عذابها عليهم. فقال تعالى ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وكذلك اعتبروا أيها الناس بما كان في شأن قوم ثمود ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أي: فإن في قوم ثمود موعظة وعبرة لكم ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إذ قيل لهم على سبيل الإنذار والتحذير إن لم يؤمنوا ويطيعوا ﴿ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ تمتعوا بحياتكم الدنيا التي تعيشونها ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ حتى ينتهي الوقت المحدد من الله تعالى لكم، فيحل بكم الهلاك والعذاب الشديد. ولكنهم لم ينتفعوا بما قال لهم به رسول الله صالح عليه الصلاة والسلام ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ فاستكبروا واستخفوا بذلك العذاب من ربهم سبحانه وتعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ وهي كل عذاب مهلك. فأهلكهم الله تعالى بصاعقة العذاب الشديد ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وهم يرونها عياناً. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام، وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع، بكرة النهار[1] وهم ينظرون حلول العذاب فيهم.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٥٤)

ثم يخبر تبارك وتعالى عن كمال عجزهم أمام عذاب ربهم الشديد، فقال تعالى ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ فلم يتمكنوا من النجاة بأي وسيلة يمكنهم بها ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ فقد أعجزهم الموقف من العذاب عن الحركة، فكأن حواسهم من الهلع والخوف قد توقفت فما استطاعوا أن يتحركوا من أماكنهم، إذ هالهم ما هم فيه من شدة ما رأوا من قوة العذاب. ثم يؤكد عَزَّ وجل كمال عجزهم بقوله جَلَّ شأنه ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ فليس منهم ولا لهم إمكانية الانتصار بالنجاة مما حل بهم من العذاب. فقد شعروا بكمال عجزهم من شدة ما هالهم من قوة العذاب وشدته. مما يبين قوة قهر الله تعالى لمن عاند واستكبر على دينه، وعلى أتباع دينه وشرعه. فاعتبروا بغيركم أيها الناس. فإن من رحمة الله تعالى أنه يعظ العباد، ويرشدهم. ولكن أكثر الناس في غيهم ساهون.

ثم يعطف الله تعالى خبر قوم نوح عليه الصلاة والسلام على الأمم السالفة في الهلاك ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ وقوم نوح الذين أهلكهم ربكم عَزَّ وجل بالعذاب قبل تلك الأمم السابقة والسالفة الذكر: كقوم لوط، وقوم فرعون، وقوم عاد وقوم ثمود. فكذلك أهلكنا قوم نوح من قبل تلك الأمم السالفة الذكر ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ فقد اتصفوا بأنهم ﴿ فَٰسِقِينَ ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى.

وفي تأخير قوم نوح عن ترتيبهم، لإفادة التعظيم والتكثير. فليس هؤلاء الأقوام المذكورة فقط هم الذين شأنهم شأن التواصي بالكفر، بل كذلك قبلهم قوم نوح ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ ﴾ ومما يفيد أنه أول المرسلين: ومروراً ببقية الرُسُل إلى أقوامهم إلى خاتمتهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يواجهون التكذيب من غيرهم لهم. كما أن في ذلك التأخير لفت الانتباه إليهم بصيغة إعادة ترتيبهم بإضافة جملة ﴿ مِّن قَبۡلُ ﴾ لكونهم أول الأقوام الهالكين. فإن في جميع من ذكرهم الله تعالى موعظة بهم لغيرهم، لإفادة العبرة بمن سبق، فاتعظوا أيها الناس، وآمنوا برسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، واحذروا من عذاب الله تعالى وسخطه.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

بعد أن تناولت الآيات السابقة ما يُوجب أخذ العبرة والموعظة من إهلاك الله تعالى للأمم الكافرة، ينتقل البيان الكريم إلى الموعظة بالآيات الكونية، الممتلئة بالحجج والبراهين على وجوب توحيد الله تعالى، وإفراده

بالعبادة، وطاعته وفق ما أمر وشرع على رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فإن من مظاهر قدرة ربكم أيها الناس أن السماء ﴿بَنَيۡنَٰهَا ﴾ أي خلقناها ﴿بِأَيۡيْدٖ ﴾ بقوة وتدبير حكيم. قال الطبري رحمه الله تعالى: وإنا لذو سعة، بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه، وقدرة عليه[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي[٢] ونقل ابن الجوزي رحمه الله تعالى في دلالتها خمسة أقوال: أحدها لموسعون الرزق بالمطر، والثاني: لموسعون السماء. والثالث لقادرون. والرابع: لموسعون ما بين السماء والأرض، والخامس: لذو سعة لا يضيق عما يريد[٣] فاستوعبت دلالة الآية الكريمة توضيح ولفت الانتباه إلى سعتها، وكذلك القدرة على زيادتها وسعاً، وعلى كمال قدرة الله تعالى على ما يريد، فلا يضيق عليه شيء سبحانه وتعالى، وذلك لكمال سلطانه وعزته وقدرته جَلَّ في علاه. مما يفيد أيضاً: أن الله تعالى ذو سعة وقدرة على كل ما يشاء، كما هي السماء في عظيم سعتها، فإننا لقادرون على توسعتها بأكثر مما هي عليه. مما يبين قوة إعجاز بلاغة بيان الآية في معطيات دلالاتها ومعانيها بأقل الألفاظ والْجُمُل والكلمات. فسبحان من أعجز بكلامه جميع خلقه.

ثم قابل تبارك وتعالى عظمة السماء في ارتفاعها ببسط الأرض، ليظهر عظيم التغاير الذي هو آية من آياته المبهرة في عظيم قدرته عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ فكما خلقنا السماء سقفاً عظيماً في ارتفاعه وسعته، وقوة البناء ومن غير أعمدة تقف عليها، فكذلك من آياتنا العظيمة: خلق الأرض التي أنتم عليها تعيشون ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا ﴾ أي: وخلقنا الأرض مبسوطة على هيئة الفراش. فكانت فراشاً للمخلوقات، يتعايشون عليها. ثم يُثني ويمدح تبارك وتعالى ذاته بما خلق من عظيم الخلق وإتقانه. فقال عَزَّ وجل ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ فالثناء وكمال المدح لربكم على كمال تمهيد الأرض على أكمل ما يكون من الصنع والإنعام والتفضل. وقد ورد فعل التمهيد بصيغة الجمع ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ لإفادة التعظيم. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: أي: فنعم الماهدون لهم نحن[٤] لإفادة المدح والتعظيم لجلالته سبحانه وتعالى فيما خلق من عظيم الخلق المبهر، الذي تظهر فيه كمال القدرة، وجمال الصُّنع، وقوة السلطان، وعظمة التدبير، والترابط بين المخلوقات، وتلبية الاحتياجات.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٦/٢١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٤/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٢/٧)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٧/٢١)

ثم ينتقل البيان الكريم إلى لفت الانتباه وشد الأذهان إلى عظيم دقة خلقه لأصناف المخلوقات، فقال تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ومن كل شيء من المخلوقات ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ فخلق الذكر والأنثى، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والحلو والمر، والنور والظلمة، والسماء والأرض، وغير ذلك من المخلوقات. ثم يذكر تبارك وتعالى المطلوب من العباد إزاء هذا الترتيب العظيم فيما خلق، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لعلكم تحافظون على مداومة التذكر لإنعام الله تعالى عليكم، ولعظيم ما خلق من الخلق، بناء على ما أوضحنا لكم وبينا. فهو تعليل لما يجب عليكم أيها العباد من التذكر المستمر. أي: لعلكم تحافظون على مداومة التذكر لما أوضحنا وبينا لكم، وأرشدناكم بهذه الآيات الكونية العظيمة، فَتُوحِّدُوا ربكم، وتمتثلوا له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ربكم هو القادر على كل شيء، وأن من بديع خلقه أن جعل من كل شيء زوجين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لكي تداوموا على التذكر لما بيناه وشرحناه لكم، فتعملوا بما جاءكم من الحق على رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، وتستمروا عليه بتذكره، والأخذ به. بما يفيد تأكيد الالتزام به، وعدم مفارقته ونسيانه. ليكون محل العناية والاهتمام منكم بالطاعة والامتثال.

فاشتمل البيان من حيث أسلوبه على قوة السياق أولاً، ثم التعليل الذي يدفع النفس للإفادة منه، وأخذه بجد واهتمام. حتى يندفع به إلى الطاعة والامتثال. كما أن ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تفيد المتوقع والمطلوب منكم تجاه هذا الذي بيناه لكم، بأن تتأملوه وتذكروه، فتقروا بالطاعة والامتثال لربكم، بناء لِمَا جاءكم من الحق. وهي تفيد الترجي، أي: اطماع العبد للقيام بما لله تعالى من الحقوق. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه لما يجب عليه، من خلال استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم، ونحو القيام بما يجب عليه.

ثم ينتقل البيان الحكيم بالْمُخَاطَبين بعد استثارة أبصارهم وبصائرهم عن عظيم خلقه، وكمال تدبيره، إلى ما يجب عليهم، وكيف يكونون مع ربهم عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فاتجهوا إلى ربكم بكمال الطاعة والامتثال بعد ما سبق لكم من البيان العظيم. فيوجه الله تعالى عباده من خلال ما أمر به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يقوله لعباده ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فانتقلوا مما أنتم عليه من الكفر والعصيان بالهروب إلى الحق، فاهربوا مما يستوجب العقاب إلى ما يستوجب الرحمة والمغفرة ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإني لكم أيها الناس رسول نذير من ربكم ﴿ مُّبِينٌ ﴾ موضح لكم الحق، وموضح لكم إنذار ربكم لكم من عذابه عَزَّ في علاه، ففروا إلى طاعة ربكم سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان أن أورد الله تعالى الأخذ بالطاعة، والانتقال من الكفر والمعاصي إلى الإيمان والامتثال بدلالة الفرار ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ والتي تعطي قوة الإنذار، التي تُوجب على المرء أن لا يتأخر، بعد أن جاءه الحق الواضح المبين. بل يجب عليه أن يفر لطاعة الله عَزَّ وجل. لأن الفرار يقتضي سرعة التولي مما هو فيه إلى حيث النجاة. فهو توجيه في كمال الدقة البيانية، وقوة الخطاب التحذيري. وكأنه ليس هناك وقت للبقاء على الكفر بعد أن جاءتكم البينات الواضحات، فاهربوا مما أنتم فيه إلى ربكم. فهو تحذير عميق في دلالته ومقصده.

ثم تلى ذلك الاستنهاض للفرار قوة الإنذار بما يقوله صلى الله عليه وسلم للعباد ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ والنذير يفيد: قوة التحذير، مع قوة شفقة الْمُحَذِّر لِمَا يحذر منه غيره. فلا مجال للانتظار بعد هذا البيان الكريم، والتوجيه العظيم. فإنها موعظة في غاية البلاغة البيانية، وفي غاية الأسلوب التحذيري.

وهي قاعدة جليلة وعظيمة في الموعظة لكل أحد من الناس. فإذا قابلته المعصية نادى نفسه بقول الله تعالى ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وإن تكاسل عن الطاعة نادى نفسه ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وإن رأى من يحتاج إلى موعظة قال له بقوله تعالى ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإنها قاعدة في بناء النفس من كل وجه، لما تحمله من الترغيب والترهيب في وقت واحد.

ثم يوضح تبارك وتعالى وجه الشبه بين المكذبين برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبين من سبقهم من المكذبين بالمرسلين من قبل ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كذلك هو محور التشابه بين من تنذرهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المكذبين بالمرسلين من قبل، وكأنهم تعاقدوا وتواصوا فيما بينهم على أن ينهجوا هذا المنهج من الكفر والعصيان. وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يلاقيه من ردود قومه المكذبين به. وتقوية له ولإرادته صلى الله عليه وسلم. مما يفيد حاجة الإنسان إلى ما يقوي به عزيمته عند الشدائد. بل عَيَّن البيان الكريم بعض الأوصاف التي توافقوا فيها وعليها ﴿ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ إلا ووصفوا رسولهم بأنه ساحر، أو أن به جنون، لمخالفته ما هم عليه من الكفر.

ثم يؤكد تبارك وتعالى توافقهم في الكفر، وفي الردود إلى درجة وكأنهم تواصوا به فيما بينهم مع البُعد الزمني، الذي لم يتلاقوا فيه ويتواجهون، حتى يُوصِي بعضهم بعضاً بذلك. فقال اللهُ تعالى ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ سؤال تعجب من توافقهم، وكذلك استنكار لأحوالهم ومنطقهم من الكفر، ومن الوصف للمرسلين بالسحر أو الجنون. ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ ﴾ هل تواصوا بذلك؟ هل تواصوا بالكفر وبتلك الردود؟ ولما أنه لا يمكن حصول ذلك التواصي بينهم، يأتي الإضراب عن ذلك الاحتمال بإلغائه، فيتجه السياق إلى بيان الحقيقة، وهي ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ ليسوا كذلك، فلم يتواصوا به، بل إن حقيقتهم أنهم ﴿ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ إنهم قوم مُعْتَدُون ومُتَعَدُّون ومتجاوزون في مسلكهم إلى درجة أنهم لا يأتمرون بأمر ربهم، ولا يقبلون الحجج والآيات والنُّذُر الظاهرة البينة. فطغيانهم وحَّدهم في رمي المرسلين بالسحر والجنون.

وقد أفادت دلالة الطغيان ﴿ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ المبالغة في الجور والتعدي على الحق بالظلم، ومجاوزة الحد فيه. ومن ذلك طغى السيل إذا فاض وخرج عن مساره وحدوده. فهؤلاء تجاوزا الطبيعة البشرية المعتدلة، والفطرة السوية. وبما يفيد اللوم والتوبيخ والتعجب من حالهم. مما يفيد أن الطغيان يحول بين المرء وقبول الحق، وأنه يؤدي بصاحبه إلى الهلاك. وبما يفيد التحذير من أخلاق الطغيان. وأن الطغيان قاسم مشترك في النتيجة،

وفي مسلك ونهج الطغاة. فجميع تصرفاتهم في كل وقت وزمن متشابهة إلى حد القول والجزم بأن حالهم وكأنهم قد توصوا بذلك النهج. مما يبين أن وحدة وتشابه أقوالهم عائد إلى الطغيان، فنتيجة الطغيان تشابهوا وتوحدوا في طريقة التكذيب، إلى درجة التطابق في مسلكهم وأقوالهم.

ومن جميل البيان الكريم أن بدأ السياق بوضع ما يتبادر إلى الذهن، بأسلوب السؤال ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ﴾ ليتقرر به عند الْمُخَاطَبين أنهم لم يتواصوا بذلك. إذاً فما هو السبب على توافقهم؟ وهنا يشتد الانتباه وتعلوا الرغبة في معرفة السبب. ليزداد عامل التشويق في البيان. ويزداد علم المخاطبين بمعرفة العلة والسبب، بأنهم ﴿ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ وليعطي البيان الكريم التحذير من الطغيان في كل شأن. فإذا كان قد حرمهم من طاعة ربهم ودخول الجنة التي هي المطلب والمكسب العظيم، فكيف حال الطغيان فيما هو دونه. فإنه يُفَوِّت على صاحبه تحقيق مصالحه.

ثم يوجه الله تعالى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن لا يبالي ولا يكترث بهم وبطغيانهم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ فأعرض بالتباعد عنهم وعن جدالهم، فليس هناك لوم من ربك عليك. فما أنت بملوم في إعراضك عنهم، واستمر في طريق دعوتك وأداء رسالتك. بما يفيد قد تحقق منك ما هو مطلوب منك من الإبلاغ للرسالة التي أوكلناك بها. مما يبين رحمة الله تعالى وحكمته، إذ لا يكلف نفساً إلا وسعها. مما يفيد أن على الداعية إلى الخير أن يسعى بأقصى ما يستطيع، فإذا وجد طغياناً وتعدياً، تولى من غير تأسي ولا حزن، بل يستمر في شأنه الدعوى. وكذلك في جانب إدارة الأمور، إذا وجد من يحاول أن يطغى في شأن بتجاوزه للحدود، فلا ينشغل به عن أهدافه وغاياته، حتى لا يعطله ويؤخره عن مشروعه ومسيره ورؤيته. فهو منهج قويم عظيم لمن أراد النجاح، وتحقيق الأهداف. كما أفاد ذلك أن مَن كُلِّف بشأن فاجتهد وبذل غاية الجهد فلا يُلام بسبب ما قد يكون من المعوقات. وهو أمر في غاية الأهمية عند التكليف.

ثم بعد معالجة البيان للواقع الدعوي للرسول صلى الله عليه وسلم ينتقل التوجيه الكريم إلى ما يجب أن يقوم به عليه الصلاة والسلام. فقال تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وداوم على التذكير والوعظ بالقرآن وبما أُرسلت به من الحق. فإن التذكير بما أوحينا به إليك أيها الرسول ينتفع به أهل الإيمان، الذين لا يكابرون على قبول الحق. وخص الانتفاع به المؤمنين، لأنهم المنتفعون بالتذكير، فالقلوب المؤمنة هي التي تنتفع بالتذكير بالحق، لتواضعها للحق.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن الأمر بالتذكير بعد التوجيه بالتولي عنهم أنه من باب الاحتراس. كي لا يتوهم أحد أن الإعراض إبطال للتذكير، بل التذكير باقٍ[1] وذكر السعدي رحمه الله تعالى: أن التذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عُرِف مجمله بالفطر والعقول. فإن الله تعالى فطر العقول على محبة الخير، وكراهة الشر. والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٠/١١)

فَيُذَكَّرُون بذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم[١] وفي قوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ قولان: أحدهما: عِظ. قاله مقاتل. والثاني: ذكرهم بأيام الله وعذابه، ورحمته. قاله الزجاج[٢] مما يفيد شمولية التذكير، ليفيد أنه لمن آمن، أي للمؤمنين، وكذلك لمن قلبه لا ينكر الحق إذا سمعه فيقبله، ثم يؤمن به بعد قبوله، فيدخل مع المؤمنين بعد تصديقه وإيمانه. وهذه من بلاغة البيان في القرآن الكريم.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وفي ختام سورة الذاريات ينتقل البيان إلى الإخبار بالغاية العظيمة من خلق الجن والإنس، مع إثبات أن المصلحة لهم في هذه الغاية العظيمة التي خلقهم الله تعالى من أجلها. مع أن الله عَزَّ في علاه غني عنهم، وعن جميع ما خلق، فلا حاجة له فيهم عَزَّ جاهه تبارك وتعالى. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ إن الغاية من خلق الجن والإنس، وما بعث من الرسل إليهم، وأنزل الكتب معهم إلا لمقصد واحد فقط، وهو عبادة ربهم وحده لا شريك له، وفق ما أمر وشرع. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب هو قول ابن عباس: وما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا[٣]

ومن عظيم البيان استيفاء دلالة القصر من قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ حصر الغاية من خلقهم في غاية واحدة فقط، وهي ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فقط لعبادتي، وليس لشيء آخر. بما يفيد الغنى عن الخلق. ولتستوفي هذه العبادة: توحيده عَزَّ وجل، وإفراده بالعبادة، والإخلاص له سبحانه وتعالى، ومحبته، واتباع شرعه. وذلك بالإنابة إليه، والإعراض عما سواه، فتكون العبادة وفق ما شرع. وفي تقديم الجن على الإنس ما يفيد المبالغة، بأنه يا أيها الإنسان الْمُخَاطَب: فإنه حتى الجن قد خلقتهم لعبادتي، فاسبق إلى الامتثال لربك.

كما أفاد ذلك: أن تشريع العبادة خاص به عَزَّ وجل، وأنه ليس لأحد أن يُشَرِّع في العبادة غير ما شرع الله تعالى. فلا يُعْبَدُ الله تعالى إلا بما شرع، فهو الذي خلق، وهو الذي أمر، وهو الذي شرع، وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب. فهذه هي الغاية التي خَلق الله تعالى الجن والإنس من أجلها. وفطر العباد على الإسلام، كما قال تعالى في سورة الروم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وهو الإسلام. فمعنى ﴿ فِطْرَتَ

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٠٤/٥)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٣/٧)
(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٥/٢١)

ٱللَّهِ ﴾ أي: الإسلام. قال مجاهد رحمه الله تعالى: الإسلام[١] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: الفطرة: الخلقة التي خُلق عليها البشر[٢] ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ والتي يبينها قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يُولد على الفطرة)[٣] أي: على الإسلام. بما يفيد ويبين أن الإنسان قد ولد، وهو مفطور على الإسلام، دون تفاصيله، فقلبه وميوله لمنهج هذا الدين، فيجد في أوامره ونواهيه وتشريعه ما يطمئن إليه قلبه. ولذلك ورد في تكملة الحديث تأثير غيره عليه (فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه) بما يبين أن تأثير غيره عليه هو أمر حادث طارئ مخالف لِمَا فُطر عليه المولد، من تأثير الوالدين، ومن يحيطون به، ومن يتعايش معهم. فإذا عرف الإسلام أقبل عليه ما لم يكن هواه وشهواته قد سيطرت عليه، فلا يريد مفارقتها إلى ما هو مدرك في قرارة نفسه أنه الحق.

وأودع الله تعالى في النفوس ما يجعلها مسؤولة عما يكون منها كما قال تعالى في سورة الشمس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ وقال تعالى في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقال تعالى في سورة المدثر ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ مما يبين مسؤولية الإنسان عن نفسه، ويبين عدل الله تعالى في الحساب والجزاء يوم القيامة.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال غناه عن عباده، فقال تبارك وتعالى ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ فلا أطالب العباد بأي نوع من الرزق، ولا أطالبهم بأن يقدموا طعاماً. فلا حاجة لربكم إليكم في شيء، كما تحتاجون بعضكم بعضاً في شأن الأرزاق والطعام. لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يرزق غيره، وهو الغني، فكل شيء هو خلق من خلقه، وله كمال الملك والسلطان والعزة والقهر. فَوَجَّه تبارك وتعالى العباد من خلال ما هو سائد بينهم من الحاجة لبعضهم بعضا، ليدركوا أنه هو الغني المغني، بينما ليس لغيره غنى عنه سبحانه وتعالى، وأنهم هم الفقراء إليه عَزَّ وجل.

ولما أن الإنفاق من الرزق يشح فيه الإنسان ويمتعض، كان النفي عاماً ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ فلم أكلفكم بما يشق على النفوس، ثم أفرد الإطعام ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ لأن تكلفته وكلفته أكثر على النفوس. فلستم مكلفين بعموم الارزاق والإطعام، سواء لأنفسكم أو لربكم، ولا لغيركم. بل هو الذي يرزقكم ويُطعمكم. بما يفيد كمال الغنى، مع نفي وجود المشقة على العباد فيما كلفهم ربهم به من العبادة والتشريع الحكيم. مما يبين سهولة دين الله تعالى، وما فيه من الرحمة حتى في التكاليف، إذ لم يكلف النفوس بما يشق عليها، بل بما هو في وسعها ومقدرتها.

---

(١) المرجع السابق (٤٩٣/١٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٦)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٤/١) برقم (١٣٨٥)

قال جلال الدين رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾: أي: لي ولأنفسهم وغيرهم[١] وقال ابن الجوزي، وبعض أهل التفسير: أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾ أي: أن يُطعموا أحداً من خلقي. لأني أنا الرزاق. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه تبارك وتعالى. لأن الخلق عيال الله تعالى[٢] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: هذه الجملة فيها بيان استغناه سبحانه وتعالى عن عباده، وأنه لا يريد منهم منفعة كما تريده السادة من عبيدهم، بل هو الغني المطلق. الرزاق المعطي. وقيل المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي، ولا يُطعموا أنفسهم، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه سبحانه وتعالى، لأن الخلق عيال الله[٣] فإن الله تبارك هو الغني، وهو الذي يُغني. وبالتالي فإن العباد هم الفقراء إلى ربهم، بما يلزمهم أن يعبدوا ربهم كما أمر سبحانه وتعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن كمال غناه، بأنه هو المتفضل على العباد بالعطاء والأرزاق، وأنه هو القوي الشديد لا غيره. فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ إن ربكم هو الرزاق لا غيره. فلا أحد يرزق العباد غيره عَزَّ وجل، فهو الذي يمدهم بما يحتاجون من أنواع الرزق. كما أن ربكم هو وحده المتفرد بكمال القوة والقدرة والعظمة. وقد بدأ البيان الكريم بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ التي تؤكد ما بعدها، كما أفادت الآية الكريمة حصر الرزق وإرزاق العباد له وحده لا شريك له، فهو وحده الرزاق، وكذلك حصرت كمال القوة والشدة له وحده عَزَّ وجل، بما يتحقق بها النفي لها عن كل مخلوق، وبالتالي أبطل كل من ادَّعَى الشريك لله تعالى. كما ورد ﴿ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ بصيغة المبالغة، التي تعني كثير وعظيم الرزق للعباد. قال الخطابي رحمه الله تعالى: هو المتكفل بالرزق، القائم على كل نفس، بما يقيمها من قُوتِهَا ﴿ ٱلۡمَتِينُ ﴾ الشديد القوة، الذي لا تنقطع قوته، ولا يلحقه في أفعاله مشقة[٤] وأفادت ﴿ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ أنه سبحانه وتعالى هو المتصف بكمال ﴿ ٱلۡقُوَّةِ ﴾ التي لا يضاهيها شيء من خلقه، فحصر امتلاكها له سبحانه وتعالى، وبالتالي يُعز من يشاء ويُذل من يشاء بتدبيره وقوة سلطانه. مما يفيد أن على العباد الإذعان لربهم وحده لا شريك له، وأن يسألوه الرزق، ويعتمدوا عليه، وأنه هو الكافي لعباده، فيجب عليهم ألا تتعلق قلوبهم إلا به سبحانه وتعالى، سواء في الرجاء أو الخوف منه عَزَّ وجل.

ثم يقرر تبارك وتعالى أن ذنوب الظالمين بالشرك والكفر هم كمن سبقهم ممن ماثلوهم من أهل الكفر والشرك. فقال تعالى ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ فإن للذين كَذَّبُوا بالرسول

(١) جلال الدين المحلي، والسيوطي، تفسير الجلالين، ص (٥٢٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٤/٧)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٩٢/٥)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٤/٧)

محمد صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يماثل عذاب من كان قبلهم من الظالمين، فإنهم في العذاب سواء. أي: فإن الذي يستحقونه من العذاب مماثل لأصحابهم السابقين من أهل الظلم الذين كذبوا بِرُسِل ربهم سبحانه وتعالى ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فلا يستعجلوا عذاب ربهم، فيطلبونه، كما قال سبحانه وتعالى عنهم في سورة الأنبياء ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ يسألون عن موعد العذاب سؤال استنكار وسخرة وتندر. فإن العذاب واقع بهم في الآخرة، وقد يعاجلهم به في الدنيا، مع ما لهم من العذاب المقيم في الآخرة. ومن دقائق البيان تسمية ما هم عليه من الشرك بالظلم. لأنه ظلم للدين، وظلم لأنفسهم، وظلم لغيرهم بمن يتأسى بهم ويقلدهم، وكذلك فيه ظلم لرسولهم صلى الله عليه وسلم، ولآيات الله تعالى وحججه بإنكارهم لها. وبما يفيد تحذير أهل الكفر مما هم عليه وفيه من الشرك والمعاصي، ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودين الله تعالى.

ثم يختم الله تعالى سورة الذاريات بالوعيد الشديد للذين كفروا. فقال تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ فالهلاك والدمار بالعذاب الشديد لمن ظلموا أنفسهم بما هم عليه من الكفر. فبدأ الوعيد بدلالة قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ الذي يفيد: الهلاك والدمار والحسرة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الذين كذبوا المرسلين، فلم يؤمنوا ويصدقوا بآيات الله تعالى وحججه التي جاء بها المرسلون، فجحدوها وأنكروا دين الله تعالى، وما يتبعه من إنكار البعث والحساب والجزاء والجنة والنار، فالهلاك والدمار والحسرة لهؤلاء ﴿ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ فالهلاك بالعذاب الشديد من ذلك اليوم الذي وعدهم ربهم به، وهو يوم القيامة. فسيأتي ذلك اليوم الذي وعدناهم به من البعث والحساب والجزاء بالعذاب والهلاك الشديد لهم. ومن دقائق البيان الكريم أنه لم يُحدد موعد هذا اليوم، ليزدادوا به تفكراً وتخوفاً، ولتعظيم التهديد والتخويف لهم. وليشمل ما يكون في الدنيا من القتل والأسر، وما سيكون يوم القيامة من عذاب جهنم وبئس المصير، فاستوفى البيان الكريم كل ما هو قادم من عذاب الله تعالى لهم، وهذا من براعة البيان في كتاب الله تعالى.

وهذا البيان يفيد التحذير من الله تعالى للعباد. بل قد ورد عاماً ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ ليشمل الظالمين جميعاً، ممن كان في العهود الماضية، أو ممن لحق بهم، ومن يريد أن يلحق بهم إلى يوم القيامة. فهذا هو مصير الظالمين، فاحذروا أيها الناس من ذلك اليوم. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم الطريق الذي يحصل به العذاب، ليحذروا منه ويجتنبوه. ويتجهوا للطريق المستقيم الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الذاريات. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.